فى الأدب الشرقى

من الادب التركى الحديث

بين صديقين

من ريف الاناضول الى خمائل الاستانة

للكاتب الاجتماعى يعقوب قدرى

من يدرى مدى الحيرة التي تنتابك ، والدهشة التى تستولى عليك، حينما يقع بصرك علي امضائي فى آخر هذه الرسالة ؟

فقد انقضت أعوام وانا لم أكتب اليك حرفاً ، وانت لم تخط الى سطرا . ولا ريب انك ستجد في صوتى الذى اخترق حجاب هذا الصمت الطويل ، رجعاً لصدى غريب من اصداء ما وراء الطبيعة . وهل أنا — والحق يقال — إلا رجل يخاطبك من وراء الطبيعة ويناديك ؟؟

ان هذه الحرب الطاحنة ، والفوضى الجارفة ، قد بدلتا كل شيء ؛ حتى اصبح كل من خرج منهما سالماً ذا أنبـاء وأخبار كانما هو باسرار القيامة عالم ، وعلى أدوار ما قبل التاريخ واقف .

أن هذه السنين الخمس من أعمارنا مملوءة بحوادث خمسة عصور فالأشياء التي كنا نعلمها ، والملامح التى كنا نعهدها ، قد أصبحت غريبة عنا ، ليس لنـا بها من عهد . وأنا اليوم لا أجد فى نفسى القـدرة على أن أتذكر أيام الصبي التى كنا نقضيها مجتمعين ، والكتب التى كنا نقرؤها مشتركين ، والأعمال التى كنا نقوم بها متعاضدين ، والخيالات التى كنا نبني عليها سعادتنا متفائلين ، وكل ما استطيع ان أتذكره اننا لم نكن فى تلك الأيام أسعد بالا ولا أحسن حالا منا فى هذه الأيام .

وأنا اريد ان اوضح هذا لنفسى بنفسى فلا أوفق ، فيخيل الى الآن انى كنت بانشاد الشعر مشغوفاً ، وانك كنت بالرسم مفتونا، ففي السنة الأولى من عهد الانقلاب ، كنت أنا فى عالم الآداب شاعراً معروفا بعض المعرفة ، وكنت انت فى عالم الصناعة النفيسة رساماً مشهوراً بعض الشهرة ، واننا كنا أكثر رفاقنا اهتماما للملبس، واكتراثا للمسكن، واحتفالا بالمآكل : فكنا نقضى ايامنا بالذهاب الى المآدب الفاخرة ، أو بالسعى فى ترتيب الملاهى الساهرة .

على انى اتذكر أن شهرتنا الصغيرة ، وثروتنا التى كانت تمهد لنا السبيل الى رغباتنا ، والاعجاب الشديد الذى كان يظهره رفاقنا بنا ، كل ذلك لم يكن ليروى ظمأ نفوسنا الصادية ، ولا ليطفيء حرارة قلوبنا المتأججة . وكنا اذا ماانفردنا بانفسنا نتشاكى مايجول فى خواطرنا من رغبات ، وما يختلج فى ضمائرنا من نزعات : فلطالما كنا نحتقر محيطنا وبيئتنا، ونشمئز من عالمنا وإقليمنا ، فكانت ضالتنا المنشودة ، أوربا . . . .

وكنا حين نسير فى الشوارع ، اذا تطاير الى أثوابنا الوحل ، أو تناثر على احذيتنا الغبار ، اشمأزت نفوسنا ، واكفهرت وجوهنا ، وزفرنا زفرة وصحنا : « هل يستطيع الانسان أن يعيش فى هذه البلاد ؟! »

وأخيراً ذهبت انت الى روما ، وانا الى باريس . ولكن يخيل الى أن تلك الرسائل التى كنت ترسلها الى من روما ، وأرسلها اليك من باريس ، كانت مملوءة بنفس الشكاوي ، مغمورة بعين الأحزان .

فكنت تقول : « ان مظاهر الصنعة الباهرة ، ومشاهد الفن الساحرة ، لا تكفى لترويح روحى المعذبة، وتسكين نفسى المضطربة ، وبالرغم من وجودى بين الجدران ، وتحت السقوف التى زينها (ميخائيل آنجلو) و (رفائيل) بريشتهما البديعة ، فانني منقبض النفس ولهان ، مشرد الفكر حيران ، وان ذلك السجين الذى يحبس فى الأقبية الضيقة ذات الهواء الفاسد ، والحلك الدامس ، لايعرف معني القسوة والشدة ، مثل ما اعرف ، فما الذى أريد ، وعم أبحث ؟ . . . »

هكذا كنت تقول ، وكنت أجيبك : « أجدني فى هذه المدينة الكبرى وحيداً ، أرجو السلوان فلا أجده ، والتمس العزاء فلا القاه . فمن أنا بين هذه الجموع الغفيرة ، ومن يدرى بى ؟ فان الجنون والخبال كادا يخالطاني لولا كتبي التي كانت تعيد الى نفسى الأمل والتفاؤل بين الفينة والفينة ! »

لم يمض زمن طويل ، حتى عدنا ادراجنا الى الأستانة ، فكنت أنت قد سئمت الرسم ، وكنت انا قد تركت الشعر

فكنت أقول : « قد قيل كل شيء ، وشعر بكل شيء ، فما الفائدة من ترديد الأقوال التي مجتها الأذواق ، وتكرير الاحساسات التى نفرت منها الأسماع ؟ ؟ »

وكنت تقول : « ما الذي يرسمه الأنسان ويصنعه ، بعد أن رأى جدران كنيسة (سيكستين) المزخرفة البديعة ، وسقوفها الملونة الجميلة ؟ فيجدر بالرسام إما أن يكون فناناً كآنجلو ، وأما أن يترك الرسم لأهله » .

وكانت الحياة تمتد امامنا وتنبسط ، ونحن نسير يمنة ويسرة كالتائه فى البادية القفراء التي لاحد لها ولا نهاية .

فكنا فى وطننا وبلدنا ، وبين اخداننا وخلاننا ، مهذارين لاعمل لنا ولا شغل ، نطوف الشوارع حيارى ، ونجول في الأزقة كسالى . وكنت كلما استيقظ من النوم ، افتح عيني وانا فى سريرى وأقول : « يالهى ! كيف أقضى هذا اليوم أيضاً ؟ ! ، وأنئن أنيناً شجياً كأن بين جنبي داء مبرحاً ، وفى أحشائى ناراً ملتهبة ، وهكذا كنت أضيق بالحياة ذرعاً ، واسخط على العالم كرهاً ، وبينا افكر ذات صباح في عثار جدى ، اذ خطر ببالى خاطر لم أفكر فيه من قبل : ذلك هو خاطر الذهاب الى مزرعة أبى ، لعل الهم يسري عني قليلا ، والغم يهجرنى ملياً .

فكنت تضحك منى يا أخى — وأنا أفارق الأستانة ضحكا مشوباً بالألم ، وممزوجا بالحنان ، وتقول : « الحياة الريفية فى الأناضول ؟ ... إن ذلك لبعيد عنك ؛ وسوف ترى !! »

ها قد مضت ستة أعوام ، أنا هنا ! ولا أكذبك إنني تألمت في أوائل قدومى ، فساورنى الهم والشجن ، واستولي على الغم والحزن ؛ ولكنى باعدت عن نفسى تلك الهموم ، وشمرت عن ساعد الجد وأخذت أسعى وأتعب ، بعد أن سئمت الحياة المدنية المتكلفة ، وضجرت من العيشة البلدية المتصنعة فملت الى الأرض أفلحها ، والى الحيوانات أخدمها ، والى الزروع أتعهدها . ولم تمض سنة واحدة على مجيئى حتى حولت ذلك البناء الصغير الي قصر كبير ، وتلك البحيرة الكدرة الآسنة التى كانت للجواميس مقيلا ، وللخيول مشرباً ، الى بحيرة صافية الماء ، طيبة الرائحة . وكان يخترق المزرعة جدول أجرد ليس على ضفتيه نبات ولا شجر ، فأصلحت مجراه وغرست على جانبيه أشجار الصنوبر ، فغدا اليوم روضة ذات منظر يملأ العين ، ويبهج القلب . وأن تلك الأراضى الواسعة الجرداء ، والبرارى الشاسعة القفراء ، قد استرجعت حيويتها بفضل السماد والعناء ، فأخذت تدر علينا الحب الكثير ، والرزق الوفير .

وأما أنا يا أخى ! فرئيس (أغا) قرية ، ترانى وانا أجول فى الأراضى ، وأطوف فى البرارى ممتطياً صهوة جوادى ، قابضا على سوطي ، محمر الخدين ، مخشوشن اليدين ، قد اكسبني العمل قوة العضلات ، ووهبنى الجهد حدة النظرات .

نعم ! أن مسعاى قد اصابه أثناء الحرب بعض الاخفاق ، ومزرعتى قد امتدت اليها يد الاملاق ، وذلك لتلبية الشبان داعى الدفاع عن الوطن ، وكان يجدر بى أنا أيضا الذهاب حيثما ذهبوا ، والتوجه أينما توجهوا ، ولكن الأرض لم تدعنى أذهب ، ولم تتركني أجيب . ففضلت البقاء بين الأطفال والنساء أسعى لسد عوزهم ، وقضاء حاجتهم .

وانا يا أخى ما كتبت اليك هذه الرسالة إلا لتعرف أن السعادة قد توجد فى الأماكن التي لا تخطر على البال ، والمواضع التي ليست بذات جمال ، ولتعلم انها لاتتوافر بالشهرة ولا الثروة ، ولا بالسفاهة والعزلة ، وإنما تتوفر بالعمل المنتج فى الأرياف ، والسعى المتواصل فى المزارع .

— فانك إذا كنت لا تزال فى ذلك المكان المظلم الضيق الذي تركتك فيه ، فاسمح لى أن قول أن كل جهد تبذله فيما لا يثمر ضلالة عمياء تبعث القلق والندم ، وكل سعي تقدمه فيما لا ينتج جهالة صماء توجب الخيبة والخذلان ؟

(سورية) الريحانية : (عمر لبسروق)